الفصل الثالث

(التمثيل الدبلوماسي لعصر الإمارة الأموية في الأندلس ١٣٨ - ٣١٦هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨م)

المبحث الأول / نشأة الممالك الأسبانية

المبحث الثاني / السفارات والتمثيل الدبلوماسي

يقودنا الحديث عن العمل الدبلوماسي إلى تتبع البدايات التي كانت في ذهن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)[1] التي ترجمها إلى أرض الواقع من خلال انتخابه لمولاه " بدر" التي تكون البذرة الأولى، وبداية للعمل الدبلوماسي المثمر في تأسيس الإمارة الأموية في الأندلس بقيادة الداخل وليبدأ فيما بعد عصر جديد عرف بعصر الإمارة (١٣٨ - ٣١٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨ م).

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام يكنى أبا الطرف ولد في الشام سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م هرب لما ظهرت دولة بني العباس ولم يزل مستتراً إلى أن دخل الأندلس ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م. وللمزيد من التفاصيل ينظر/ الحميدي، المصدر السابق، ص ١٥ - ١٦؛ ابن الفرضي، المصدر السابق: ١ / ١١. وللتعرف على معنى الداخل ونسب عبد الرحمن بن معاوية ينظر / ملحق رقم (٥).

لقد وصل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى المغرب سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م [١]، ومن هناك بدأ تفكيره بالأندلس، وإن ذلك يعود إلى أسباب عدة أولها: البعد المكاني للأندلس عن العباسيين ونفوذهم وان دولتهم منهمكة في مشاغلها الداخلية والمناطق القريبة من عاصمة دولتهم بغداد، أما السبب الثاني فيعود إلى أن عبد الرحمن كان على علم وإطلاع بالمشاكل الداخلية واشتداد العصبية القبلية في الأندلس التي كانت نتيجتها الحرب بين المضرية واليمنية[٢]، ويمكن أن نضيف الطموح الشخصي العالي لعبد الرحمن الداخل وتطلعه إلى إعادة ملك أجداده الذي فقد في الشرق بسقوط دمشق(١٣٢ هـ / ٧٤٩ م). إن حالة الاستقرار النسبي التي عاشها عبد الرحمن الداخل بعد معاناته طريداً جعلته يفكر بالاتصال بالموالي الأمويين في الأندلس.ويبدأ عمله الدبلوماسي بإرسال سفيره ومولاه بدر إلى الأندلس سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م بعد أن رسم له

(١) ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن أبي هبيرة الليثي العصفري: تاريخ خليفة بن خياط، ض. ن: مصطفى نجيب وحكمت كشلي، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م)، ص ٢٧٢.

(٢) التواتي، عبد الكريم: مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، مكتبة الرشاد، ط١،(الدار البيضاء، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م)، ص ١١٠ – ١١١ وينظر: الدوري، إبراهيم ياس خضير: عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م) ص ٤٢ – ٤٣.

خطة عمل وزوده بصورة واضحة عن أحوال البلاد المتوجه إليها وأعطاه خطاباً مكتوباً إلى موالي بني أمية هناك [١].

وعن ذلك يقول رسول عبد الرحمن بن معاوية " بدر ": «فجزت إلى الأندلس، واجتمعت بعبيد الله بن عثمان [٢] بساحل البيرة [٣] [Elvira]، في آخر سنة ١٣٦ [٧٥٣ م]؛ ثم انصرفت في سنة سبع بعدها، وأقمت عنده مدة؛ ثم كرَرت منصرفاً إلى الأندلس في موالي عبد الرحمن»[٤].

وعند وصول بدر إلى الأندلس التقى بموالي المروانيين وراح يبث الدعوة بينهم فاستجابت له اليمانية ثم قفل راجعاً إلى الشمال الأفريقي حيث مولاه عبد الرحمن بن معاوية، وأخذ يشرح له ما صادفه، وما جرى

---

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٦٦٧ وينظر: دوزي، Renhardt Dozy المستشرق الهولندي: تاريخ مسلمي اسبانيا، تر: حسن حبشي، مر: جمال محرز ومختار العبادي، دار المعارف، (القاهرة، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م): ١ / ١٨٩.

(٢) هو أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد اللذين يتوليان حمل لواء بني أمية بالأندلس وكان لهما ولبني أمية بلاء مشهود في مجتمع الأندلس. ينظر: ابن عذارى، المصدر السابق: ٢ / ٤٢.

(٣) مدينة من مدن الأندلس نزلها جند دمشق من العرب تبعد عن غرناطة ست أميال أي ما يعادل (٦٥٤ .٩ كيلو متر) وعن قرطبة تسعون ميلاً أي ما يعادل (١٤٤.٨١ كيلو متر)، كثيرة الأنهار والأشجار. وللمزيد من التفاصيل ينظر: الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الناسي: لمسالك والممالك، تح: محمد جابر الحسيني،(القاهرة،١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م)، ص ٣٦؛ ابن غالب، محمد بن أيوب الأندلسي: فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ‹ مختصر منه بعنوان / تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ››، تح: لطفي عبد البديع (القاهرة، د. ت)، ص ١٤ .

(٤) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٦ وينظر: ابن عذارى، المصدر السابق: ٢ / ٤١.

بينه، وبين الموالي في الأندلس فعبر بعدها عبد الرحمن البحر سنة «١٣٨ هـ / ٧٥٦م» ووطئ شواطئ الأندلس [١].

ومن بين ما دار من حديث مثمر وناجح بين المروانيين وبدر حين خاطبهم قائلاً: «ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أودكم ويُدرككم آمالكم ؟ فقالوا: ومن لنا به في هذه الديار، فقال بدر: ما أدناه منكم وأنا الكفيل لكم به، هذا فلان بمكان كذا وكذا يقدمن نفسه فقالوا: فجئ به أهلا، إنا سراع إلى طاعته، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه...»[٢].

عبر عبد الرحمن بن معاوية البحر سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وأرسى في مدينة المنكب [٣] Almunecar على الساحل الجنوبي الشرقي من

(١) ابن خلدون، المصدر السابق: ٤ / ١٤٥ وينظر: مجهول: تاريخ الأندلس، تح: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م)، ص ١٦٢؛ العزاوي، عمار عبد الرحمن حسين: الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) وسياسته الداخلية والخارجية في الأندلس من ٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ – ٨٥٢ م، رسالة جامعية غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، (بغداد، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م) ص ١٥ – ١٦.

(٢) ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلماني: الإحاطة في أخبار غرناطة، شر و ض: يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، ط ١، (بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م): ١ / ٢٤٧.

(٣) هي مرسى بحري بشرقي الأندلس، له نهر يصب في البحر، وهو أول بقعه وطئتها أقدام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس وذلك لحصانته ومنعته من البر والبحر. وللمزيد من التفاصيل ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٦؛ عنان، محمد عبد الله: الآثار الأندلسية

الأندلس على البحر المتوسط ونزل بقرية تدعى طرش [١] Torrox واجتمع الناس من حوله، وكثر مؤيدوه [٢]. وهنا تنتهي مهمة بدر بتحقيق هذا النصر الدبلوماسي الكبير الذي سيعيد الحكم للأمويين بعد أنْ فقدوه في الشرق بقيادة عبد الرحمن ابن معاوية، وليبدأ عهد جديد عرف بعهد أو عصر الإمارة الذي بدأه عبد الرحمن بن معاوية سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وليستمر هذا العصر بالرغم من وفاته سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م لأبنائه، وأحفاده من بعده [٣]. وعن هذا الأمر تحدث عبد الرحمن بن معاوية عندما سمع من عم له وهو يخاطب جده الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ / ٧٢٤ – ٧٤٣ م) وهو ينظر إليه قائلاً «هذا هو الذي يحيي ملك بني مروان بالمغرب بعد ذهاب ملكنا بالمشرق !» [٤].

الباقية في أسبانيا والبرتغال، مؤسسة الخانجي، ط ٢، (القاهرة، ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م)، ص ٢٥٨؛ ملحق رقم (٣).

(١) هي قرية في الأندلس من كورة البيرة وتشتمل على عدد من القرى. ينظر / الحموي، معجم البلدان، ١٣ / ٢٩؛ ابن عذارى، المصدر السابق: ٢ / ٤٤؛ ملحق رقم (٣).

(٢) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢١٦. وينظر: الدوري، المرجع السابق، ص ٥١؛ دوزي، تاريخ مسلمي اسبانيا: ١٩٧/١.

(٣) للتعرف على نسب الأمويين في قرطبة ينظر: ملحق رقم (٦) والمعرفة حكام الأندلس بعد عبد الرحمن الداخل حتى نهاية الخلافة الأموية هناك ينظر: ملحق رقم (٧).

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق: ٤ / ١٤٥ وينظر: عبد الله أنيس الطباع، محقق كتاب: ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحلة السيراء، دار النشر للجامعيين، (بيروت، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢ م)، ص ١٩٥ الهامش ولتفاصيل أكثر ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين السلماني: تاريخ أسبانيا الإسلامية. أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام

إن العمل الدبلوماسي الناجح الذي قام به «بدر» في الأندلس لا يقتصر على مصير عبد الرحمن بن معاوية فحسب؛ وإنما يتعداه إلى أن هذا العمل كان الأساس الذي بنيت عليه الدولة الأموية في الأندلس فيما بعد. وإذا كان بعضهم يعد عبد الرحمن بن معاوية مؤسس تلك الدولة فان بدراً الواضع والباني لأساسها. وقديما قيل: «إن البناء من غير أس لا يُبنى والزرع من غير غرس لا يُجنى».

نشأة الممالك الأسبانية

إن عمليات الفتح التي قام بها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية " الأندلس " (اسبانيا والبرتغال حاليا) أسفرت عن سيطرتهم على معظم أجزاء شبه الجزيرة، إلا أنهم عندما وصلوا إلى المناطق الشمالية والشمالية الغربية وتوغلوا في جبال تلك المناطق الصخرية والمؤدية إلى سواحل كانتبرية Cantabrian على المحيط الأطلسي لم يسيطروا سيطرةً كاملة على تلك الأرض ويفرضوا سلطانهم عليها بشكل حقيقي وفعال ولاسيما في إقليم (اشتوريش Asturia)[1] في (جليقية Galicia)[2] وذلك بسبب وعورة

من ملوك الإسلام، تح و تع: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، (القاهرة، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م)، ص ٧.

(١) إن اشتوريش القديمة هي اليوم ولاية أوفيدو Oviedo ويسميها العرب أوبيط. ينظر: ارسلان، الحلل السندسية:٢ / ٤٤ – ٤٥.

(٢) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من الغرب، وهي سهل وبلد الجليقيين والجلالقة من ولد يافث بن نوح رضي الله عنه وللمزيد من التفاصيل ينظر:

تلك المنطقة وقسوة مناخها [١]. لقد استغل بعض القوط المنهزمين تلك الأوضاع ولجأوا إلى تلك الجبال واختفوا فيها للتجمع والاستعداد بانتظار الفرصة السانحة لمقاومة المسلمين الفاتحين للأندلس والذين استهانوا بأمر تلك المناطق وبقلة عدد القوط المنهزمين المتمركزين بها فانصرفوا عنهم، الأمر الذي فسح المجال لتلك الفلول المنهزمة والأعداد القليلة بأن تكون كيانا قويا استطاع مع الأيام مقارعة المسلمين في الأندلس حتى بلغ الأمر أن تحول ذلك الكيان وتلك الفلول من صفة الدفاع إلى صفة الهجوم [٢].

لقد عبّر مؤنس عن رأي لما تقدم مفاده أن المسلمين بتوغلهم في الأندلس ووصولهم إلى الشمال الأسباني جعل أصحاب القرار والقادة المسلمين يعتقدون أن فتح أسبانيا قد تم وأنهم سيطروا على كامل الأرض الأسبانية [٣].

الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص ٦٦؛ الحموي، معجم البلدان: ٦ / ١٥٧؛ ملحق رقم (٢).

(١) طه، عبد الواحد ذنون: دراسات أندلسية،،منشورات مكتبة بسام / مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، ط١، (الموصل، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م): ١ / ١٥٥ وينظر: الأنصاري، فريدة رؤوف: الإمارة الأموية في الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ /٧٥٦ - ٧٨٨ م) دراسة سياسية،رسالة جامعية غير منشورة، جامعة بغداد - كلية الآداب، (بغداد، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م)، ص١٩٩.

(٢) طه، دراسات أندلسية، ص. ن.

(٣) فجر الأندلس، ص ١٠٥. وينظر: الدوري، المرجع السابق، ص ١٩٤.

يبدو مما تقدم أن صعوبة تضاريس المنطقة الشمالية والشمالية الغربية من أسبانيا؛ فضلاً عن الاعتقاد الذي ساد عقول قادة المسلمين بأنهم أكملوا فتح الأرض الأسبانية بكاملها، وقضائهم على كل مقاومة يمكن أن تكون ضدهم، من بين الأسباب التي فسحت المجال أمام الفلول المنهزمة من القوط للتجمع في تلك المناطق مستغلين وعورة الأرض وقسوة الجو، وهذا ما يستشفه من يعتمد على ما ذكر آنفاً. إلا أن تلك الأسباب يمكن أن يعول عليها من كان بعيداً عن المعارك الحربية وغير المتخصص بفنون الحرب، وهذا لا ينطبق على القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين خبرتهما ظروف المعارك حتى جعلتهما يصلان إلى قناعة بأن تلك المناطق الوعرة والظروف الجوية القاسية يمكن أن تكون ملاذا آمنا للفلول المنهزمة أمام جيوش الفتح، فمن غير المعقول أن يكون هذا الأمر غائبا عن بال هذين القائدين موسى وطارق.

ولهذا فإن من الأسباب الأخرى التي ساعدت القوط على التجمع في تلك المناطق وصول مغيث الرومي مبعوث [1] الخليفة الأموي الوليد بن

(١) ثم أتاهما عهد الوليد بن عبد الملك بالانصراف، فانصرفا: ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥. وكان مغيث الرومي غلاما للوليد بن عبد الملك فبعث إليه طارق إنك إن رفعت أمري إلى الوليد، وان فتح الأندلس كان على يدي، وان موسى حبسني يريد قتلي أعطيتك مائة عبد، وعاهده على ذلك فلما أراد مغيث الانصراف ودع موسى بن نصير وقال له: لا تعجل على طارق ولك أعداء، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأخاف عليك وجده فانصرف مغيث وموسى بالأندلس فلما قدم مغيث على الوليد أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق، وبحبس موسى إياه وما أراد به من القتل، فكتب الوليد إلى موسى

عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٤ م) يبلغ فيه القائد موسى بن نصير بالتوقف عن الفتوحات، والمثول أمام الخليفة في دمشق، وإن هذا الأمر جعل القائد موسى بن نصير يوافق [١] على عقد صلح مع أهالي منطقة جليقية التي كانت جيوش المسلمين على مشارفها، وينقذ في الوقت نفسه الجيوب المنهزمة من القوط التي تجمعت في تلك المنطقة هربا من جيش الفتح [٢]. ولذلك يمكن القول إن تكوّن نواة للقوط في تلك المنطقة يعود إلى توقف عمليات الفتح استجابة لأمر الخلافة الأموية في دمشق وبذلك يمكن أن نحملها نتائج ما ترتب على ذلك التوقف من نتائج سلبية مستقبلا. ولكن العمليات العسكرية لم تتوقف بذهاب القائد

يقسم له بالله لئن ضربته لأضربنك، ولئن قتلته لاقتلن ولدك به، ووجه الكتاب مع مغيث الرومي فقدم به على موسى في الأندلس فلما قرأه أطلق طارقا وخلى سبيله ووفى طارق لمغيث بالمائة عبد التي كان قد جعلها له. ينظر: ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح أفريقية والأندلس، تح: عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني،(بيروت، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م)، ص ٨٠ – ٨١؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ١ / ٢٢ – ٢٣. هناك من يرى أن الأندلس كادت تسقط كاملة بيد المسلمين لولا وصول رسول الخليفة الوليد.

ينظر / http: // www. Alshamsi. net / man / Oman / andaluss.html.

(١) هناك من يشير إلى أن موسى بن نصير عندما جاءه رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك لم يسرع بالرجوع وإنما سعى لاستكمال فتوح شبه الجزيرة (الأندلس) حيث غزا بلاد البشكنس ثم توجه شمالا فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها وبعدها أدركه رسول ثان يطلب منه العودة إلى دمشق. ينظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص ٢٤٢ – ٢٤٣؛ السامرائي، إبراهيم وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، جامعة الموصل، (الموصل، د. ت) ص٤١.

(٢) العمايرة، محمد نايف: مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان، ط ١، (الأردن، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) ص ٤٧.

موسى بن نصير الذي استدعي إلى دمشق من لدن الخليفة؛ وإنما استمرت بعد أن استخلف من ينوب عنه وفي هذا الأمر يقول ابن القوطية: «وشد موسى بن نصير حصون الأندلس، واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، وأسكنه اشبيلية، وخلف معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، وأقام عبد العزيز يفتتح ما بقي عليه من مداين الأندلس»[١]. وعن الموضوع نفسه تحدث ابن عذارى قائلا: «لما قفل موسى بن نصير، استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس؛ فضبط سلطانها، وسد ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة. وكان من خير الولاة، إلا أن مدته لم تطل، لوثوب الجند عليه وقتلهم له، لأشياء نقموها عليه...»[٢].

لقد نشأت في أسبانيا المملكة الإسبانية النصرانية بشيء من الصمت الذي لم يشعر به العرب المسلمون في الأندلس إلى جانب الدولة العربية الإسلامية هناك، ولم يتحسسوا نموها في سنواتها الأولى والأكثر من ذلك إن العرب هناك لم يهتموا بها بالشكل المطلوب حين شعروا بوجودها، ولم يعنيهم أمرها إلا حينما تبلورت وانتظمت وظهرت للوجود كقوة لها القدرة على العدوان والمقاومة، ومن هنا أخذت المملكة الإسبانية النصرانية مكانها في تاريخ شبه الجزيرة الابيرية بجانب الدولة العربية الإسلامية. إلا أن نشأة هذه المملكة ما كان إلا مرحلة جديدة في حياة مملكة القوط التي سحقها العرب المسلمين عندما فتحوا الأندلس عام

(١) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٣٦.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق: ٢ / ٢٤.

(٩٢ هـ- ٧١١ م) التي ظهرت بعد ذلك لتعيد حياتها ببطء وتواضع، في المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا في منطقة صخرية، لكن نموها هذا امتاز بالثبات حتى قويت دعائمها في تلك المناطق، ثم بدأت معركتها مع دولة الإسلام جنوب الأندلس، تلك المعركة التي شغلت حيزاً كبيراً في تاريخ الإسلام في اسبانيا [١].

لقد بدأت المملكة الإسبانية النصرانية في ظروف يمكن تشبيهها بالأساطير، وقد نشأت في الوقت الذي افتتح العرب أسبانيا، واستطاعوا هزيمة القوط والقضاء على دولتهم ومطاردة فلولهم المنهزمة بعد موقعة شريش التي هزم فيها جيش القوط وقتل ملكهم ردريك «لذريق» «٩٢ هـ / ٧١١ م»[٢]. فلقد استطاعت الشراذم المنهزمة من القوط التجمع في جهتين الأولى في هضاب كانتبرية ـ نافار وبسكونية في الشرق ـ والأخرى في منطقة اشتوريش في الغرب، أما الأولى فكانت بزعامة الدوق بطره أو بتروس Pedro الذي يرجع إلى أحد الأصول الملكية إذ كان من قادة الجيش في عهد غيطشة ولذريق الملكيين القوطيين، وكانت تلك الإمارة قليلة الخطر نتيجة لوقوعها على الطرف الغربي من جبال ألبرت أو البرانس [٣] Pirenees في منطقة نافار وبسكونية؛ أي إنها تقع

(١) عنان، دولة الإسلام، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

(٢)عنان، دولة الإسلام، ص ٢٠٨.

(٣) وهي جبال تفصل بين فرنسا واسبانيا وتمتد من البحر المتوسط إلى المحيط الاطلانطيكي (الأطلسي) وللمزيد من التفاصيل ينظر: القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي: صبح

على خط سير تحرك جيوش المسلمين في ذهابها وإيابها إلى جنوب فرنسا إذ أصبحت عرضة لتلك الجيوش.أما الإمارة الأخرى جليقية أو مملكة اشتوريش فكانت أكبر خطراً من إمارة كانتبرية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنها تقع في منطقة جبلية وعرة، وبعيدة عن خط سير الجيوش الإسلامية المتجهة نحو فرنسا. وكانت فلول القوط فيها قد التجأت إلى مغارة تدعى كوفادونكا Covadonga في جبال كنتبرية الحصينة وفي أعلى قممها التي يسميها الأسبان قمم أوربا Plcos de Europa ويطلق عليها المسلمون «الصخرة» في جليقية، أما قائد هذه المجموعة فهو« بلايو » Pelayo وتسميه الرواية العربية «بلاي» ومن المرجح انه من أصل قوطي نبيل إلا أن بعضهم يدعي انه ابن دوق كنتبرية ومساعد الملك لوذريق[1].

ومن الجدير بالذكر أن بلاي وقع أسيراً بيد المسلمين وسجن سنة (٩٨ هـ / ٧١٦ م) في قرطبة في زمن الوالي الحر بن عبد الرحمن الثقفي (٩٨ - ١٠٠ هـ / ٧١٦ - ٧١٨ م) إلا أنه تمكن من الفرار واتجه نحو منطقة اشتوريش في الشمال الغربي من الأندلس وتجمع حوله عدد من الفارين

الأعشى في صناعة الانشا، شر: نبيل خالد الخطيب، ط ١، (بيروت، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م): ٥ / ٢٠٦؛ أرسلان، الحلل السندسية: ٢ / ٧٨ وما بعدها.

(١) طه، دراسات أندلسية، ص ١٥٦ وينظر: طه، عبد الواحد ذنون: مجلة أوراق، قيام الممالك الاسبانية وعلاقتها مع العرب في الأندلس، المعهد الاسباني العربي للثقافة، ع / ٥ و ٦، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ م، ص ٨٩ - ٩٠.

من أمام جيش المسلمين وراح يحثهم على المقاومة وعدم الاستسلام [١]. إن المسلمين في الأندلس سيّروا جيشاً لإخضاع تلك الشراذم المتحصنة بتلك الجبال الوعرة، فاجتاح المسلمون منطقة البشكنس وأشتوريش، ومما يلفت النظر إن المسلمين أوفدوا حليفا لهم (الأسقف أوباس) ليقنع (بلاي) بالتسليم إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض وظل في كهوفه المنيعة، وعبثا حاول المسلمون الوصول إلى عدوهم على الرغم من كل الممارسات التي قاموا بها من حصار وقطع للمؤونة، وتشير بعض الروايات إلى أن (بلاي) هجم على جموع المسلمين وقتل منهم الألوف [٢]، وكان عدد أنصاره يقدر بثلاثين رجلاً وعشر نساء [٣]. ولكن هذه الروايات لا تخلو من المبالغة لان بلاي حينها لم يبق له من أعوان وأنصار إلا القليل كما مر بنا آنفاً ومن غير المعقول أن يواجه بهذا العدد القليل جيش المسلمين ويلحق بهم هزيمة وقتلى بالألوف!.

لقد راح (بلاي) ومن كان في أمرته في تلك الأماكن المحصنة والمنيعة، بعد أنْ صدوا هجمات المسلمين، يتحينون الفرص لمهاجمة المسلمين، وبالفعل قام بمهاجمة جيش المسلمين ثم ارتد إلى أماكن تحصينه واعتصم بها [٤].

---

(١) طه، دراسات اندلسية، ص ١٥٦ – ١٥٧ وينظر: طه، مجلة أوراق، قيام الممالك الاسبانية، ص٩٠.

(٢) عنان، دولة الاسلام، ص ٢١١.

(٣) الدوري، المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٤) عنان، دولة الاسلام، ص ٢١٢.

إن الاضطرابات التي عاشتها الأندلس بعد مقتل الوالي عبد الرحمن الغافقي (١١٢ – ١١٤ هـ / ٧٣٠ – ٧٣٢ م)، وهزيمة جيشه في معركة بلاط الشهداء بعد استشهاده (١١٤ هـ / ٧٣٢ م) وانشغال الولاة بالتصدي لجيوش الفرنجة عن الأراضي في (إقليم سبتمانية Septimania) أدت إلى كثرة الغارات التي شنها (بلاي) وعصاباته على الأراضي الإسلامية وبذلك ظهر واضحاً خطر تلك العصابات المنطلقة من منطقة جليقية. وعندما لاحظت سلطة الأندلس خطر تلك العصابات سارت إليها بجيش من المسلمين ولكن النصارى تحصنوا في تلك الجبال المنيعة نفسها التي كانت مستقراً ومنطلقا لهم [١]. ولم يحصل ذلك الجيش على شيء مما أدى إلى انسحابه، وإن ترك أمر هؤلاء المقاومين، وإغفال شأنهم من أهم الأخطاء التي تسجل على عرب الأندلس، إذ قويت شوكتهم وانضم إليهم العديد من الأنصار وصار(بلاي) ملكا عليهم[٢]. إن الذي زاد الأمر سوءاً انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم إلى الصراعات الداخلية فيما بينهم الأمر الذي صرف أنظارهم عن مراقبة الأندلس والاستمرار في اليقظة والحذر، ناهيك عما نتج عن الحروب بين العرب والبربر التي أدت إلى مغادرة الكثيرين من البربر للأماكن التي سبق لهم الاستقرار فيها في الشمال الغربي الأقصى وتوجههم إلى الجنوب، بل وصل الحال إلى عودة قسم منهم الى إفريقيا وبهذا فقد أصبحت تلك المناطق خالية فكان

(١) المرجع نفسه، ص. ن.

(٢) طه، دراسات أندلسية، ص ١٥٨.

من الطبيعي أن يستغل القوط تلك المناطق ويسكنوا فيها ويتنفسوا الصعداء [١].واستمر (بلاي) في حكم إمارة جليقية تسعة عشر عاماً وتوفي سنة «١٢٠ هـ/ ٧٣٧م» ولكن الروايات النصرانية تشير إلى أن تاريخ وفاته أبعد من ذلك يصل إلى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهري للأندلس (١٢٧ – ١٣٧ هـ / ٧٤٥ – ٧٥٥ م)، ثم جاء من بعده ولده (فافيلا) الذي لم يستمر حكمه إلا عامين فقط [٢].

لقد أشار(عنان) إلى هذا الأمر ذاكراً أن فافيلا خلف أباه بلاي، لكن الأول توفي سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م عن حكمٍ يناهز العامين. وفي الوقت نفسه توفي أمير كانتبريا الدوق بتروس الذي جاء من بعده ولده ألفونسو AlFonso ليصبح دوق كانتبريا، وقد نمت هذه الإمارة الصغيرة وقوي ساعدها، وقويت أواصر التحالف بينها وبين مملكة جليقية بزواج أميرها الفونسو من أرموزندة أو هرموزندة Ermensin ابنة بلاي. وعندما توفي فافيلا، وقع اختيار الجلالقة على ألفونسو دوق كانتبريا ليكون ملكاً عليهم، وهكذا اتحدت تلكما المملكتان لتشكلا مملكة نصرانية واحدة، هي مملكة ليون والمعروفة في الرواية الإسلامية بمملكة جليقية، التي تمتد من بلاد البشكنس شرقا إلى شاطئ المحيط غرباً، ومن خليج بسكونية شمالاً إلى نهر دويرة جنوباً، وبهذا شملت مساحات ومناطق كبيرة وشاسعة من جبال وهضاب وعرة، واحتمت خلف الجبال البعيدة

(١) مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٠٩.

(٢)عنان، دولة الاسلام، ص ٢١٣.

عن أيدي المسلمين وغزواتهم. ويعد ألفونسو دوق كانتبريا، الذي يسمى أيضاً ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي مؤسس تلك المملكة النصرانية الشمالية [١].

أما القسم الشرقي من تلك المملكة فقد عهد به (الفونسو) هذا إلى أخيه (فرويلا) الذي راح يُغير على أراضي المسلمين ثم يرجع مسرعاً إلى الجبال حتى يتحصن بها خوفاً من أن يلحق به المسلمون، إلا أنَ المسلمين حينها كانوا في شغل شاغل عما يجري من فعل النصارى بالمسلمين إذ انشغلوا بالفتن والصراعات الداخلية عن الجهاد، وصد الهجمات النصرانية [٢].

يبدو مما تقدم أن الأسلوب الذي اتبعه فرويلا هذا هو أسلوب الكر والفر مستفيداً من وعورة الأرض الجبلية التي يختبئ بها؛ فضلاً عن انشغال المسلمين بصراعاتهم الداخلية، كذلك سعى النصارى في شمال وشمال غرب الأندلس إلى الوحدة ولم الشمل وكانت النتيجة تكوين المملكة النصرانية الشمالية إلا أنها لم تصل إلى مرحلة النضج الكامل وإنما كانت في مرحلة التكوين. وفي الوقت نفسه كانت رياح الفرقة، والحرب الأهلية تعصف بالأندلس فضلا عن الفوضى وضعف المسلمين في تلك الأنحاء مما فسح المجال أمام الفونسو وجموعه ليجتاح المناطق

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٣.

(٢) عنان، دولة الاسلام، ص ٢١٤.

القريبة منه ويقتل من كان بها من مسلمين. وهكذا نشأت تلك المملكة النصرانية واتسعت حدودها واشتد ساعدها وقويت يوما بعد يوم حتى جاء القرن الثامن فإذا بها تصارع الإسلام في الأندلس وتغير على أراضيه وتعيث قتلاً بالمسلمين، ونهباً وسلباً لممتلكاتهم [١].

السفارات والتمثيل الدبلوماسي

في المبحث السابق وقع القول في: كيف تكونت الممالك الأسبانية، ورغم ذلك فهي لم تظهر أو تصل إلى مرحلة الوضوح، أو النضوج الكامل وتظهر إلى الوجود بشكل جلي [٢]. وبالمقابل فان عبد الرحمن الداخل اتبع سياسة اللين منذ البداية إلا أنها لم تجدِ نفعاً الأمر الذي جعله يتبع سياسة جديدة قوامها الشدة ضد الخصوم، حيث انشغل بترتيب أوضاع الأمارة الأموية الناشئة في الأندلس والقضاء على الثورات التي حدثت ضده والتي كانت كثيرة إلى الحد الذي ما كان يفرغ من ثورة حتى تندلع غيرها [٣]. ولأجل تحقيق الاستقرار عمد الأمير عبد الرحمن بن معاوية إلى إعادة تنظيم الجيش اعتماداً على أشخاص يثق بهم من عائلته أو من البيت الأموي الهاربين من مجازر العباسيين [٤]. إلا أن خصوم

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) الحجي، أندلسيات: ٢ / ٦٣.

(٣) الدوري، المرجع السابق، ص ٩٩.

(٤)

الأمارة الجديدة لم يكونوا في داخل الأندلس حسب وإنما في خارجها أيضاً وبرغم ذلك فانه رحب بكل سلم ومهادنة لأنه أراد تكريس جهوده لقمع الثائرين وتثبيت أركان دولته الجديدة ولهذا فهو لم يتوانَ في عقد الأمان [١] الذي تم بينه وبين مسيحيي الشمال سنة ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م. إن هذا الأمان أدى إلى وصول سفارة من الشمال لهذا الغرض في أيام «فرويلا الأول Fruela I» (١٤٠ – ١٥١هـ / ٧٥٧ – ٧٦٨ م) الذي كان يواجه اضطرابات ومشاكل داخلية، وبالإفادة من الرغبة المتبادلة في السلم؛ لأن الأندلس مثلما ذكرنا كانت تعيش حالة غير مستقرة تتمثل بأحداث الوالي السابق يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وتصدي عبد الرحمن الداخل له [٢]. وهذا يعني أن ديدن هؤلاء الشماليين كان اللجوء الى السلم والمهادنة عندما يضطرون إلى ذلك نتيجة لحدوث ثورات أو تمردات ويتأزم الوضع الداخلي في مملكتهم.

كما ترد إشارة إلى إرسال مبعوثين من الأندلس إلى إمبراطور فرنسا(بيبين Pippin) حيث استقبل في(اكوتين Aquitaine) - مدينة جنوب

Jose – Luis Martin.Y Otros , Historia de Espana , Aguilar. Altea. Taurus. Alaguara S. A. , (Madrid , ١٩٩٨). p. ٧١.

(١) للتعرف على مضمون هذا الأمان ينظر: عنان، دولة الإسلام، ص ١٩٩؛ الحجي، أندلسيات: ٢ / ٦٣ – ٦٤؛ الدوري، المرجع السابق، ص ١٩٨.

(٢) الحجي، أندلسيات: ٢ /٦٥.

فرنسا - في سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وفداً من السراسين [١] Saracens في أسبانيا الذين قدموا عبر مرسيليا [٢]. أما في أيام هشام الأول (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) ابن عبد الرحمن الداخل فلم يكن هناك تمثيل دبلوماسي أو علاقات ودية ذات أهمية. والحال ذاته ينطبق على الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م) المعروف بالحكم الأول [٣]، باستثناء ما ذكره (أرسلان) في كتابه إذ أشار إلى أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم أرسل رسلا سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م إلى مدينة كومبيان Compiegne التي كان يقيم فيها الإمبراطور. ومن الجدير بالذكر إن الأمير عبد الرحمن كان يمارس أعمالاً كهذه في حياة أبيه، وقد توجه الرسل إلى مدينة اكس لاشابيل Aix la Chapell التي كان يعقد فيها مجلس شورى وكان غرض الرسل عقد متاركة [٤]، وانعقدت إلا أنها لم تستمر طويلاً [٥]. كما إن هناك من يزعم أن أمير قرطبة أرسل وفداً إلى (شارلمان) وقد وصل الوفد

---

(١) إن كلمة السراسين هنه تعني العرب وقد أطلقها الرومان والغربيون على كل العرب.ينظر: البعلبكي، منير: المورد / قاموس انكليزي - عربي، دار العلم للملايين، ط ٣٧، (بيروت، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م)، ص ٨١٢؛ السامر، المرجع السابق، ص ٤٦ - ٤٧. ومن الجدير بالذكر أن المراجع الحديثة ومنها الفرنسية لازالت تستخدم هذه الكلمة مثل:

Georges ,Duby: Histoire de La France ,Volume ١, Larousse (Paris , ١٩٩٩) , P. ١٩١.

(٢)

Pirenne.Henri: Mohammed and Charlemagne , Unwin university Book. (London , ١٩٦٨) P. ١٦٠.

(٣) الحجي، أندلسيات: ٢ / ٦٩.

(٤) تاركه أي صالحه على تركه. ينظر: مصطفى، المعجم الوسيط، ص ٨٤.

(٥) تاريخ غزوات العرب، ص ١٨٦ - ١٨٩.

إلى اكس لاشابيل [١] Aix la Chapell وكان هدف الوفد عقد صلح بين الطرفين الأندلسي والفرنسي، وبموجب هذا الصلح على العرب في الأندلس التنازل(لشارلمان) عن جميع الأراضي الواقعة بين نهر ابره، والبيرانه وانعقد هذا الصلح في سنة ١٩٥ هـ / ٨١٠ م أي في زمن الحكم الأول [٢].

أما في زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ – ٨٥٢ م) فقد ساد الاستقرار الأندلس، التي وصلت إلى درجة عالية من الهيبة والنفوذ مما انعكس على الجانب الدبلوماسي ومنه السفارات إذ غدت الأندلس مقصدا لتلك السفارات [٣]، ومنها السفارة الموجهة إلى ملك النورمان من أجل السلم والمهادنة [٤] التي سنأتي إلى تفاصيلها في

(١) مدينة ألمانية غربية تعرف (آخن الألمانية) تقع قرب الحدود البلجيكية الهولندية، كان ملوك الألمان يتوجون فيها، عقد فيها مؤتمر لحل المشاكل الأوربية سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م وللمزيد من التفاصيل ينظر: صالح، محمد محمد وآخرون: تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، ص ١٣؛ صلاواتي، ياسين: الموسوعة العربية الميسرة والموسعة، مؤسسة التاريخ العربي، ط ١، (د. م، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م): ١ / ٢٥٨.

(٢) أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ١٧٨.

(٣) الحجي، أندلسيات: ٢ / ٧٠. بالرغم من وجود نشاط دبلوماسي في هذا العهد إلا انه لم يصل إلى القمة التي وصلها النشاط الدبلوماسي في عهد الخلافة الأموية في الأندلس لاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (الثالث) (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ – ٩٦١ م)؛ ولكن هذا النشاط يمكن أن يكون اكبر من الحقبة التي سبقت عهد عبد الرحمن الأوسط.

(٤) عنان، دولة الإسلام، ص ٢٨٤ وينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٢٣٣؛ العزاوي، اطروحه، ص ١٢٤.

الفصل التالي، وكذلك السفارة التي وصلت إلى قرطبة من ملك الفرنجة إلا أن هناك عدم اتفاق بشأن مكان انطلاقها، فهناك من يرى إنها انطلقت من ملك الفرنجة إلى بلاط عبد الرحمن بن الحكم «الأوسط» (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ – ٨٥٢ م) لإقرار السلام بين الطرفين [١]، وهناك من يرى أنها انطلقت من قرطبة إلى ملك الفرنجة الذي يعرف أذفونش [٢]، ومع هذا فإن انطلاق السفارة دليل على وجود صلات دبلوماسية بين البلدين سواء انطلقت السفارة من أمير الأندلس، أو من ملك الفرنجة.

لقد أشارت إلى هذه السفارة بين أمير الأندلس وملك الفرنجة بعض الكتب المسيحية القديمة وحددت تاريخها (٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) وهي موجهة من قرطبة إلى ملك الفرنجة لإقرار السلام بين الطرفين [٣].

---

(١) ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، (ويشمل السنوات من ٢٣٢ - ٢٦٧ هـ / ٨٤٦ – ٨٨٠ م)، تح: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، (بيروت، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) ص ١٠٣.

(٢) وهو تحريف لاسم لذريق إذ أن المقصود هنا هو ملك فرنسا قارلة Charles المعروف بلقب «الأصلع Le Chauve» ابن لذريق Ludovico المعروف بلقب « الورع Le pieux » ولد في سنة ٨٢٣ م (= ٢٠٨ هـ) وتوفي سنة ٨٧٧ م (= ٢٦٣ هـ) وكان أبوه قد توفي سنة ٨٤٠ م (= ٢٢٥ هـ). وأعقبت وفاته فتنة وحرب أهلية بين أبنائه، وأخيرا تمكن قارله (شارل الأصلع) من تولي الملك في سنة ٨٤٣ م (= ٢٢٨ هـ). ينظر / محمود علي مكي، محقق كتاب / ابن حيان، المقتبس من أنباء، ص ١٠٣ الهامش. وهناك من يذكر أن " أذفونش " هو لقب جار على الملوك، ويبدو لنا أن هذا هو الأقرب إلى الصواب. ينظر / القلقشندى، المصدر السابق: ٥ / ٤٥٤.

(٣) محمود علي مكي، محقق كتاب / ابن حيان، المقتبس من أنباء، ص ١٠٣ الهامش.

أما في زمن الأمير محمد الأول (٢٣٨ – ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ – ٨٨٦ م) ابن عبد الرحمن الأوسط فقد ظهرت سفارة موجهة من هذا الأمير إلى (أذفنش) الملك النصراني [١]، كان الهدف منها إطلاق سراح وزيره هاشم بن عبد العزيز [٢] وأداء فديته ولكن الأمير محمد لم يرد الإعلان أو التصريح بمكاتبته إلى الملك النصراني وأن يبدو فداء وزيره هاشم من قبل أهله وعشيرته لا من قِبله مباشرة، مع أن أهله لم يكونوا قادرين على دفع الفدية المطلوبة لإطلاق سراح هاشم [٣]. ولعل هدف الأمير من هذه السرية كان نابعا من أنه لم يُرد إظهار الضعف والانكسار أمام الملك النصراني؛ بل أظهر عدم اكتراث للأمر بالرغم من تأثره بما حصل لوزيره، لأن تأثر الأمير لهذا الأمر يسجل ضعفا لا على الأمير حسب وإنما على الإمارة الأموية في الأندلس كلها، أو لعله نابع من أن الأمير أراد غلق الباب أمام الملك النصراني عندما يريد المساومة بأمور أخرى ربما لا

---

(١) إن الملك النصراني الذي تزامن حكمه مع حكم الأمير محمد هو اردونيو (٢٣٦ - ٢٥٢ هـ / ٨٥٠ - ٨٦٦م) وابنه الفونسو الثالث الذي تسلم العرش بعد وفاة أبيه وحكم أربعا وأربعين سنة ولكن الأرجح أن يكون الفونسو الثالث هو المعني لأن عهده شهد قوة المملكة النصرانية وغزا مدنا إسلامية عدة وشدد الضغط على الأندلس . ينظر : عنان ، دولة الإسلام ، ص ٣٥٧ – ٣٥٨.

(٢) هو هاشم بن عبد العزيز بن هاشم (ت ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م)، أبو خالد أخو أسلم بن عبد العزيز القاضي . مذكور بفضل وأدب، أصله من موالي عثمان بن عفان (رضي الله عنه) . وللمزيد من التفاصيل ينظر : الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٩ ؛ الضبي ، المصدر السابق ، ص ٤٢٣ ؛ العمايرة ، المرجع السابق ، ص ٦٨ مع بعض الإضافة لما ذكره الضبي والحميدي.

(٣) ابن حيان ، المقتبس من أنباء ، ص ٣٨٦ – ٣٨٧.

تتعلق بالمال حتى إنْ أراد المال كفدية، فتصرف الأمير هذا يجعل الملك النصراني ربما يتردد في زيادة تلك الفدية.

أما الأمير المنذر(٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ – ٨٨٨ م) ابن محمد الأول ثم أخوه عبد الله (٢٧٥ – ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ – ٩١٢ م) فقد انشغلا بالفتنة التي أصابت الأندلس ومحاولة القضاء عليها و بالغزوات المستمرة، والثورات التي كانت تحصل بين الحين والآخر، فلم يرد ذكر لأي تمثيل دبلوماسي أو سفارات ذات أهمية مثل التي حدثت في عهد عبد الرحمن الأوسط[1]. ويفيد جدول رقم (١) بالسفارات التي انطلقت من الأندلس إلى ممالك أوربا المسيحية الكاثوليكية في عصر الإمارة.

(١) عنان ، دولة الإسلام ، ص ٣١٠ – ٣٤٦.